المطلق والنسبي.. قليل من العلم كثير من الخرافة!

هاني لبيب

أحد أهم مرتكزات الثقافة العربية هو التراث في مجمله "الفكري والثقافي والديني والفولكلوري"، وقد ارتبط دائمًا في العقل العربي بثنائية. ثنائية "الماضي والحاضر"، "الأصالة والمعاصرة"، وكذلك "العلم والدين". وقد رفض البعض إعمال العقل في نقد هذا التراث، وهو موقف متطرف قابله تطرف آخر، إذ ظهر من يدعون للتمرد على التراث، وكل ما هو قديم، بل والشك فيما جاء به وعنه، وبالتالي، ترسيخ فكرة النسبي المتغير في مقابل المطلق الثابت.

في تقديري، وحسب التجربة الإنسانية، يمكن تحديد أبسط تعريف لـ"المطلق" بأنه التام الكامل المتجاوز للزمان والمكان، ولا يرتبط بأرض أو شعب ولا بظروف ويتسم بالثبات والعالمية، أما تعريف "النسبي" فهو كل تفسير لأي ظاهرة طبيعية أو علمية أو اجتماعية... ارتباطًا بالزمان والمكان، والتغير بتغيرهما وتطورهما حسب السياق.

ملاحظات وتصورات

* في حياة الإنسان العديد من الثوابت المطلقة والمتغيرات النسبية، وما يندرج تحت النسبية أضعاف الأمور المطلقة، خاصةً في ظل التطور الصناعي والتقني والتكنولوجي. إن فهم الواقع معقَّدٌ، وفهم الماضي أكثر تعقيدًا، بل ويحمل العديد من الروايات التي يشوبها التناقض والنقص تارة، وصياغتها بشكل يصل إلى حد التزوير المتعمد تارة أخرى... تأكيدًا على مقولة خطيرة منتشرة تقول إن "التاريخ دائمًا يكتبه المنتصرون"، لا المؤرخون الذين يقعون أسرى للصورة الذهنية التي صدَّرها لنا المنتصرون. إن المرجعيات ومعنى الأخلاق وسؤال المبادئ والقيم... أصبحت لها تفسيرات نسبية يتعامل معها كل إنسان بشكل مختلف عن غيره.

* على مدار التاريخ، تحمل المعرفة في طياتها علمًا مستقرًّا وجهلًا مستمرًّا بكل ما هو غامض وغير معروف، وهو ما يحفز دائمًا على البحث ويدفع إلى المراجعة والتقييم؛ فالمعرفة تعني

نظريات وحقائق وبراهين وتجارب حسب أحدث ما تم التوصل إليه العلم، وتتغير تلك المعرفة إذا ما تغيرت تلك الحقائق حسب التطور العلمي للنظريات مثلما حدث مع نظرية النسبية.
أما على المستوى القِيَمِي والإنساني، فإنه يمكن الاتفاق على أن حياتنا تحكمها ثنائياتٌ نسبيةٌ: الجمال والقبح، الذكاء والغباء، القوة والضعف، المعرفة والجهل، السعادة والحزن. كما يختلف تطبيق بعض المفاهيم، مثل قيمة النجاح التي يراها فريق في الجانب التعليمي والأكاديمي، ويراها فريقٌ ثانٍ في العمل وتولي مناصب مرموقة وقيادية، ويراها فريق ثالث في الحب، بينما يراها فريقٌ رابع في تكوين الأسرة، كما يراها فريقٌ خامس في جمع الثروات واقتناء المال... وهكذا.

* استنادًا إلى ما سبق، نميل إلى فكرة أنه إذا كانت القيم ثابتةً ومطلقةً، فإن تطبيقها نسبيٌّ حسب الزمان والمكان والأشخاص؛ أي أن سياق تطبيق هذه القيم هو الذي يجعلها نسبية. فالعدل والمساواة والحرية مفاهيم يطالب بها الإنسان منذ بداية الحضارات... لكن اختلف تطبيقها حسب التطور الحضاري وحسب الأيديولوجيات، وهو ما يؤكد على أنه على مر التاريخ لم نجد حيادًا حقيقيًّا أو حرية مطلقة. الأمور جميعها نسبية تختلف من ثقافة إلى ثقافة ومن حضارة إلى حضارة، وهو ما يجعل أحكامنا ونظرتنا للظواهر والأفكار تختلف بين قبولها واعتناقها في فترة ما وبين رفضها واستهجانها في فترة أخرى.

* لا خلاف حول فكرة أن منطلقات الإنسان الفكرية والثقافية والدينية مختلفة ومتعددة ومتنوعة، فمعايير الأحكام ومقاييسها غير متشابهة. الاختلاف هو سيد الموقف، فلا نجد مثلًا تعريفًا واحدًا متفقًا عليه لـ"الحقيقة"، وليس من السهل تعريفها، لتعدد تعريفاتها بين الفلسفات وبين الثقافات وبين العلوم القانونية والاجتماعية. وهكذا فإن الثوابت الدينية واحدة عند أتباعها، ولكن أساليب تفسيرها متعددة حسب السياق التاريخي والاجتماعي ومستويات الإدراك العقلي لمحتواها ومضمونها. وربما يكون أفضل نموذج على ذلك هي قاعة المحكمة التي يجلس فيها الجميع منتظرين حكم القاضي في قضية قتل، عائلة القتيل تنتظر القصاص بغضِّ النظر عن السبب الذي تسبب في مقتله، وتنتظر عائلة القاتل دفاع المحامين استنادًا إلى أي ثغرات في القضية

للحصول على أفضل حكم، بغضّ النظر عن كونه مجرمًا قاتلًا. يرى كل طرف أن الحق معه وحده والصواب حليفه، وأن غيره على خطأ، بل وليس له أي حق من الأصل.

تجديد الفكر الديني

يرى البعض أن العقائد الدينية انتقائية بطبيعتها، وتميل نحو استبعاد المختلفين معها، ومن ثم فإن تجديد الفكر الديني هو الذي يمكنه ترسيخ مفهوم التماسك مع تخطي محدودية العقيدة، كما يسهم في دعم فكرة الوحدة مع التنوع، وهي فكرة حتمية للمجتمع المدني والديمقراطية. كما أن المسؤولية الإيمانية تتطلب خلق مجتمع العدالة والحق. وهو ما يتطلب التغلب على الشعور بالانعزالية والاغتراب.

يتأكد لنا، الآن، أننا نحتاج إلى تجديد الفكر الديني وليس الخطاب الديني؛ فالخطاب الديني آراء شخصية معظمها ينتشر من خلال "الوعظ والإرشاد" حسب الفهم النسبي للنصوص الدينية بوجه عام، ومحاولة تفسير الظواهر الطبيعية من خلال تلك النصوص بوجه خاص. أما الفكر الديني فيرتكز على "أفكار وتصورات" لاجتهادات لاهوتية وفقهية تراكمية على مدار سنوات طويلة. تجديد الفكر الديني يمثل فهم الإنسان للدين، ورؤيته الشخصية. وليس المقصود بالقطع تجديد النص الديني أو الكتب السماوية. والتجديد هنا غير مَعنِيٍّ بشكل الخطاب وكلماته، بل بتعديل سيكولوجية الفكر الديني ومضمونه بما لا يتعارض أو يمس النصوص بثوابتها الدينية والإيمانية... خاصةً أن تراثنا الديني يحتوي على بعض ما يخالف أصول الدين، ويخالف المنطق العقلي. فلا يمكن رفض النص الديني منطقيًّا لأنه مرجعٌ غير قابل للشك، وفي الوقت نفسه لا يمكن قبول تفسيراته كليًّا لما في بعضها من تجاوزات غير مقبولة دينيًّا أو فكريًّا... على غرار اقتران الهوية الدينية بالقتل من جيش الرب في أوغندا وداعش في ليبيا والعراق وسوريا.

رفض التجديد يعني تجميد الأحكام عند فترة زمنية محددة في التاريخ الماضي، وهو ما يعني غلق باب الاجتهاد الذي يقوم أساسًا على التجديد. ويرتبط بذلك الحديث عن الإعجاز العلمي للأديان الذي يُعتَبَر نوعًا من العجز تجاه تقدم الغرب وتكنولوجيته. والسؤال البديهي: أنه طالما

أن الكتب السماوية ذكرت لنا النظريات العلمية نحن أهل الإيمان... فلماذا لم نكتشفها نحن؟ ولماذا نتأخر دائمًا ولم نتقدم، بل وتقدم غيرنا؟ وكيف يستقيم أن يكون الغرب المتقدم ماديًّا هو نفسه "المنحط" روحيًّا وأخلاقيًّا؟

الفصل بين العلم والدين لا يستند إلى أفكار نظرية المؤامرة حسبما يروج البعض، بل يبعد النص الديني عن مهاترات المقارنة مع النظريات العلمية. النص الديني ثابتٌ لا يتغير، أما النظريات العلمية فهي متغيرة حسب الزمان والمكان ضمن نطاق التطور العلمي المستمر.

تجديد الفكر الديني أهم وأكبر من تركه داخل حدود المؤسسة الدينية.. فالمفكرون والمثقفون لهم دور أصيل في هذا التجديد بعيدًا عن التصورات المسبقة عن القطيعة بين المثقفين والمؤسسة الدينية.

في مصر الآن إرادة سياسية لتجديد الفكر الديني، ولكن الإرادة الدينية ليست بالقوة المطلوبة لتحقيق هذا التجديد، للدرجة التي جعلت البعض يظن أن المؤسسة الدينية المصرية ليست لديها رغبة حقيقية في خوض طريق التجديد باعتباره تهديدًا للمكاسب التي حققتها المؤسسة الدينية في ظل كل هذا التراجع الفكري. وكأن القيمين عليها وكلاء الدين وأوصياؤه بدون أي مراعاة للمصلحة الوطنية العليا.

توظيف الدين

يعتقد أتباع كل دين أنه المالك الوحيد لحقيقة الكون والخلق والثواب والعقاب. وترى الجماعات المتشددة والمتطرفة أنها تدين بالدين الحق، وغيرهم من الكفار والزنادقة. وتناسوا أن الدين عقيدة راسخة في كيان الإنسان لا إكراه عليها، بمعنى أنه لا إجبار لأحد على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك؛ فالإكراه على الدين لا يأتي بمؤمنين صادقين بقدر ما يأتي بمنافقين وكذابين ومدلِّسين. كما أن الأديان لا تتقاتل فيما بينها رغم الاختلاف العقيدي أو التشريعي أو الطقسي. والدين لا يذهب إلى ميادين القتال. غير أن المعتنقين لهذا الدين أو ذاك هم الذين يتقاتلون وهمًا في سبيل نصرة الدين شكلًا، وطبقًا لمصالحهم

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مضمونًا. وبالتالي، صارت للأديان في العلاقات والنزاعات أدوار وتوظيفات يختلف حجمُها ونوعياتها حسب كل مرحلة تاريخية.

المستقبل يحتِّم علينا جميعًا احترام الخصوصيات العقائدية للأديان وفقًا لما تنص عليه المصادر الدينية لكل منها، والعمل على فتح أبواب التعاون المثمر بينهما، والمرتكز على قيم ومبادئ إنسانية عامة لا خلاف عليها.

نقطة ومن أول السطر..

الجهل هو مصدر الخوف، والخرافة هي أساس الوهم. وكلاهما ضد العلم. أما المعرفة فهي مصدر قوة، والعلم ضد الجهل والخرافة، وكلاهما سلاح العقل.